مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

آثارُ سياق الحالِ في بيانِ مقاصدِ التنزيلِ عند المفسرين
– تفسيرُ التحريرِ والتنويرِ أنموذجًا–

The effects of the context of the situation
in explaining the purposes of revelation according to interpreters
-Interpretation of liberation and enlightenment as a model

ط.د. وائل بن حمزة

المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، بوزريعة، (الجزائر)

Wail4ever24@gmail.com

أ.د. نصر الدين بن زروق

المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، بوزريعة، (الجزائر)

benzerrougnacer@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/04/26 تاريخ القبول: 2024/09/18 تاريخ النشر: 2024/09/30

المؤلف المراسل: ط.د. وائل بن حمزة Wail4ever24@gmail.com

الملخص:

إنَّ سِياق الحال أو (المقام) بعناصره ومكوناته المختلفةِ يُسهمُ إسهامًا بالغًا في معرفة دلالةِ الخِطاب والاقتراب من معنى النصِ والجهدُ التفسيريُّ هو –في جانب مهم منهُ– تنبيهٌ وإشارةٌ إلى قرائنِ الأحوالِ والعوامل المختلفةِ التي أحاطتْ بنزولِ الآياتِ، وأهمُ هذه العوامل طرفَا الخِطابِ (المُخاطِب والمُخاطَب) والظروفُ والملابساتُ الاجتماعيةُ والتاريخية التي أحاطت بالنصِ ورافقتْ نزولَ الآياتِ.

ولذلك كان الهدفُ من هذه الدراسةِ الإحاطةُ الشاملة بعناصر الخطاب ومكوناتهِ مع النظر الدقيق في مدى عنايةِ مفسرينا الأوائل بسياق الحالِ وتوظيفه كمعطى دلاليٍّ تداوليٍّ له أثره في بيان معاني الآيات وتفسيرها فكان أن طرحنا الإشكالية الرئيسة الآتية : ما أثر الحال السياقية عند محمد الطاهر بن عاشور في تبيان و توجيه وترجيح ما يلتبس من محتملات آيات الذكر الحكيم؟ ثم إلى أي مدى احتكم إليها في تفسيره "التحرير والتنوير"– كقرائن دلالية تداولية لها وظيفتها في كشف غوامض المعاني القرآنية وتهدِّي حقيق مقاصدها ؟ وقد تبدى لنا في جوهر الدراسة تلك العنايةُ الفائقةُ التي أولاها الإمامُ المفسِّر في تفسيره "التحرير والتنوير" أسبابَ النُّزول في رفع ودفع كثيرٍ من مُلتبسِ آيات القرآن الكريم وظنيِّها حيثُ نهجَ في إيرادها منهجًا قويمًا يعتمدُ على التمحيص والمناقشةِ والترجيحِ فنجده يجمعُ أسبَاب النزول في الآيةِ الواحدةِ ويتعقبُها ، ويرجِّح أقربَها للصواب ، ويعللُ ردَّهُ للرواياتِ الأُخرى.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب القرآني، المفسرون ، سياق الحال ، الدلالة، التداولية.

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

Abstract:

The article discusses the importance of situational context in understanding the meaning of discourse and Quranic verses. It highlights how contextual elements like social and historical circumstances, as well as the speaker and listener, play a key role in interpreting the text. The study aims to examine how early interpreters, particularly Muhammad al-Tahir ibn Ashur, utilized situational context in his Tafsir (Al-Tahrir wal-Tanwir) to clarify and direct the meanings of Quranic verses. Ibn Ashur's approach involved critically analyzing multiple reasons for the revelation of a single verse and preferring the most accurate interpretation, while justifying the rejection of other narrations.

Keywords:

the Qur'anic discourse; Interpretation ; the context of the situation; Pragmatics;semantic.

1. مقدمة

قد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مُظهِرًا لوحيه، ومستودعًا لمرادِهِ، وأن يكون العربُ هم المتلقين أولا لشرعهِ وإبلاغ مُرادهِ لحكمةٍ علِمَها منها كونُ لسانهم أفصحَ الألسنِ وأسهلها انتشارًا، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظهِ، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمةً قد سلمتْ من أفنِ الرأيِ عند المُجادلة ومن زَلَلِ اللَّجاجِ عند المُحاججة، ولهذا كان السعي إلى معاني القرآن الكريم في حسن فهمٍ وتدبرٍ مُلزمًا على المفسِّر والآخذ بعلم التأويل الدرايةَ بالمقاصدِ الأصليةِ التي راعاها الشارع الحكيم وجاءتْ الآيات الكريمة لتبيانها، ولن تتأتى له – أعني المفسِّرَ لآيٍّ القرآنِ – تلك الغاية والمزية إلا بحسن النظر وكمال التفقه في آيات الذكر الحكيم ألفاظا ومعانٍ، مع الوقوف على ما تقتضيه دلالة اللفظ أو المقام، وما تبينه قرائن الأحوال في فهم حقيق معاني التنزيل التي يتقصدها الله –عزَّ وجلَّ– هداية لعباده وتقويما لهم على صراطه المستقيم. وتحصيلا لهذه الغاية الشريفة – أعني إصلاح أمر الناس كافة– فقد اعتنى المفسِّرُون على اختلاف مناهجهم بين مأثورٍ ورأيٍ عناية بالغة بعناصر الحال السياقية وما يُصاحبها من ملابساتٍ كلاميةٍ وظروفٍ مقاميةٍ وأحداثٍ خارجيةٍ لينظروا في جملة العوامل المصاحبة لأحوال التنزيل، فكان أن جعلوا معرفة أسباب النزول والإحاطة بها أمرًا واجبَ التحصيل والتحقيق فيه من المفسِّر قبل عرضه للآياتِ بالتفسير والتبيان.

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وفي هذا السياق تتدرج إشكالية هذا البحث وهي كالآتي : **ما أثرُ الحال السياقية عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تبيانِ و توجيهِ وترجيحِ ما يلتبسُ من مُحتملاتِ معاني آيات الذكر الحكيم ؟ ثم إلى أي مدى احتكم إليها في تفسيره "التحرير والتنوير"– كقرائن دلاليةٍ تداوليةٍ لها وظيفتها في كشفِ غوامضِ المعاني القرآنية وتهدِّي حقيق مقاصدها ؟.**

ولهذا فإنَّ من الفروض التي تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقها : كونَ الحالِ السِّياقيةِ آلةٌ وأداةٌ هامَّة من أدواتِ التفسيرِ والتبيانِ استعان بها المفسرون في رفع كثيرٍ من حُجبِ الغموضِ واللبسِ الدلالي الذي يعرِضُ لبعض المعاني القرآنية إضافة إلى اعتبارها عمدةً في فهمِ وترجيحِ وتوجيهِ كثيرٍ من مُلتبسِ هذه المعاني وظنيِّها.

هذه أهم الأسئلة والفروض التي يتطارحها هذا البحث ومن خلالها يسعى إلى إصابةِ جملةٍ من الأهداف يتقدمُها تبيانُه لأثرِ هذا المُعطَى الدِّلالي –أعني سياقَ الحالِ– في نشأةِ علم التفسيرِ مع بيانِ مبلغِ أهميتهِ وجليلِ دورهِ في استجلاءِ دلالاتِ النصِ القرآنيِّ ودفعِ اللَّبسِ عن مُحتَملِ معانيهِ متحققًا لأبرزِ أصولهِ النظرية عند المفسرين و تمثلاتهِ الإجرائيةِ عند **الإمام محمد الطاهر بن عاشور** في تفسيره "**التحرير والتنوير**" انطلاقًا من عناصرِ الخطابِ القرآنيِّ الحاليةِ الثلاثِ المُخاطِبُ والمُخاطَبُ والبيئةُ زمانًا ومكانًا.

ولهذا فقد رأينا وجوبَ النظرِ في منهجِ الدلالةِ السِّياقيةِ الحاليةِ عند المفسِّرين باعتمادنا المنهج الوصفي أداةً للتحليلِ والنظرِ باعتبار أنَّ هذه الدراسة يدورُ فلكُها أساسًا حول دائرةِ البحث اللسانيِّ في ضوءِ معطياتِ علم الدلالةِ الوصفيِّ .

2. سِياقُ الحَالِ في المُعجمِ والمُصطلَحِ :

سياقُ الحالِ مصطلحٌ حديثُ الظهورِ في علم اللغةِ أو اللسانياتِ المُعاصرة قديمُ الأصولِ والمنابتِ في علومِ العربيةِ، ولكي تكتمل معالم الصورة المعنوية لهذا المصطلح لابد لنا من أن نربط بين مفهوميْه **اللغوي/المعجمي** و**الاصطلاحي/ الاستعمالي**، ولمَّا كان هذا المصطلح مركبًّا تركيبًا إضافيًّا من كلمتيْن هما **(سِياق)** و**(حَال)** وجبَ علينا البحث في مفهوميْ جزأيْهِ على نحو ما سنرى إن شاء الله في الصَّفحات الآتية.

المجلد: (16) | العدد: (02) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 238–260 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

1.2 السِّياقُ في المُعجمِ:

جاءَ في معجم "مقاييس اللغة" أن "السِّين والواوَ والقافَ أصلٌ واحدٌ، وهو حَدْوُ الشَّيءِ، يقالُ : ساقهُ يسوقهُ سَوْقًا، والسَّيقة : ما اُستيقَ من الدواب، ويقال : سُقتُ إلى إمرأتي صداقها، وأسَقتهُ، والسُّوقُ مشتقةٌ من هذا لما يُسَاقُ إليها من كلِّ شيءٍ، والجمع أسْواقٌ، والساقُ للإنسانِ وغيره، والجمع سُوقٌ، إنَّما سُميتْ لذلك لأن الماشي ينساقُ عليها، ويقال :إمرأةٌ سَوقاءُ ورجُلٌ أسْوقُ إذا كانَ عظيمَ السَّاقِ والمصدرُ السَّوْقُ"[1].

وقد ورد في "معجم اللسان" أن "السُّوقُ معروفٌ ، ساقَ الإبل وغيرها يسوقُها سوقًا وسِياقًا، وهو سائقٌ وسوَّاقٌ، شدِّدَ للمبالغة ....وقد انساقتْ وتساوقتْ الإبلُ تساوقًا إذا تتابعتْ، وكذلك تقاودتْ فهي متقاودةٌ ومتساوقةٌ، والمُساوقة المتابعةُ كأن بعضها يسوقُ بعضًا ...وساقَ إليها الصداق والمهر سِياقا وأساقهُ ...وساقَ فلانٌ من إمرأتهِ أي أعطاها مَهرَها، والسِّياق المَهرُ . ويقال : فلانٌ في السِّياق أي في النزع، كأن روحه تُساق لتخرجَ من بدنه، ويقال له: السِّياق أيضا، وأصله سِوَاقٌ، فقلبت الواو ياءً لكسرة السينِ، وهما مصدران من ساق يسُوقُ"[2].

فكما هو ملاحظٌ وبيِّنٌ فإن هذه المعاني لمادة "سَوَقَ" في المعاجم العربية القديمة ذاتُ دلالاتٍ ومعانٍ حسيَّة صِرفةٍ بإجماعِ اللغويين القدامى صُورُها نزعٌ للروحِ وتتابعٌ وانقيادٌ في سوْقِ الماشيةِ والإبلِ والمهرِ وغيرها، وأمَّا المعنوي منها فناشئٌ عن التطور في دلالةِ لفظةِ "السياق" وانتقالها من طور الحقيقة إلى طور المجاز – بما يُدنيها ويقرِّبها أكثرَ إلى مفهومها المُصطلحي الحديثِ – فمتأتٍ أساسًا من دلالتها على تتابعِ معاني "الحديث" أو "الكلام" في مَساقٍ وسياقٍ حَسَنٍ.

وبناء على هذه المقاربة المعجمية للفظة "السياق" يتبين لنا أنَّ دلالتها وثيقةُ الصِّلة بمعانٍ من قبيل "**التتابعِ**" و"**التقاودِ**" و"**التوالي**" و"**السَّردِ**".

المجلد: (16) | العدد: (02) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 238–260 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

2.2 الحال في المعجم :

ورد في "معجم اللسان" أن "الحول سنة بأسرها، والجمع أحوال وحوول و حؤول حكاها سيبويه، وحال عليه الحول حولا و حؤولا أتى ...و أحولت أنا بالمكان وأحلت أقمت حولا وأحال الرجل بالمكان وأحول أي أقام به حولا "[3].

وقد ذكر ابن فارس أن "الحاء والواو واللام أصل واحد وهو تحرك في دور، فالحول العام وذلك أنه يحول أي يدور، ويقال : حالت الدار وأحالت و أحولت أتى عليها الحول، و أحولت أنا بالمكان وأحلت، أي أقمت به حولا ... وحال الشخص يحول إذا تحرك وكذلك كل متحول عن حالة، ومنه قولهم :استحلت الشخص، أي نظرت هل يتحرك، والحيلة والحويل والمحاولة من طريق واحد وهو القياس الذي ذكرناه "[4].

وبالجملة فإن لفظة "**الحال**" تنقلب في أصلها المعجمي إلى الجذر اللغوي "حَوَلَ" وهي كينة الإنسان وهو ما كان عليه من خيرٍ أو شرٍ، يذكر ويؤنث، والجمع أحوال و أحولة و أصلها "حَوَلَ" فتحولت الواو إلى ألف مماثلة لفتحة الحاء قبلها وكان وزنها "فعل""[5].

3.سياقُ الحالِ . المُصطلح والمفهُوم:

دخل مصطلح "السياق" إلى المعجم العربي ترجمة للمصطلح الانجليزي (context) وهو يطلق ليعبر عن أجزاء القول أو النص المجاورة أو القريبة من الوحدة اللغوية المراد تفسيرها، "وهو بهذا المفهوم على نوعين : **أولهما** أنه يعني جزءًا من نص أو عبارة ما تحيط بكلمة أو قطعة معينة وتحدد معناها وهو ما يعرف بالسياق اللغوي للنص، و**الثاني** منهما أنه يعني الظروف التي يقع فيها حدثٌ معينٌ سواء أكانت مستقرة أم متغيرة وهو ما يعرفُ بسياق الحال أو الموقف"[6].

وما تجدر بنا الإشارة إليه أن هناك مصطلحات عربية أخرى مرادفة لسياق الحال وكلها ذات دلالة قريبة منه كمصطلح "**المقام**" و"**الماجرى**" و"**السياق الاجتماعي**" و"**السياق العام**" و"**السياق الخارج عن النص**" و"**سياق الموقف**" و"**المسرح اللغوي**" و"**الظروف الكلامية**" .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

ويراد به–أعني سياق الحال– في علم اللغة الحديث " السياقُ الذي جرى في إطاره التفاهمُ بين شخصين ويشمل ذلك زمن المحادثة ومكانها والعلاقة بين المتحادثين والقيم المشتركة بينهما والكلام السابق للمحادثة"[7].

ويفصل الدكتور محمود السعران في العناصر المكونة للحال السياقية فيقول :"إنَّ سياق الحال أو الماجرى هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للحال الكلامية ومن هذه العناصر المكونة للحال الكلامية :

أ. شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما "الثقافي" وشخصياتُ من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع – إنْ وجدُوا– وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على "الشهود" أم يشاركون من آنٍ لآنٍ بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم .

ب. العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو ... كالوضع السياسي وكمكان الكلام ...وكل ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه .

ج. أثر النص الكلامي في المشتركين كالاقتناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك ...

وهكذا يتضح أن أهم خصائص "سياق الحال" إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به "**المُتكلم**" وسائر المشتركين في "**الموقف الكلامي**""[8].

و"بما أن المُصطلح أداة تعبيرية من نوعٍ خاصٍ فهو لا يخلو من عناصرَ سياقيةٍ تحدد هويته المفهومية داخل سياقات استعماله ومجالات اختصاصه التي تحدد معناه السياقي، إذ قد نجد مصطلحًا واحدًا له هيئة معجمية واحدة ولكنه قد يتغير معناه من مجال معرفي إلى آخر، وهو ما يستدعي معرفة السياق لتحديد معناه الاستعمالي، ولذلك فالوصف المعجمي لا يعبر عن مفهوم المصطلح بصفةٍ معزولةٍ إلا إذا حددنا معناه السياقي، فمصطلحٌ " **كالحالِ**" مثلا مازال يتأرجحُ مفهومهُ في الدراساتِ اللسانيةِ من محتوى معرفيٍّ إلى آخرَ، ولذلك فإن السياق هامٌّ جدًّا في الحدِّ من هذا التأرجحِ الدّلالي ...

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

و في هذا السياق يوضحُ أبو البقاء الكفوي أن "**الحالَ**" "هي ما كان الإنسان عليه من خيرٍ أو شرٍ، يذكَّرُ ويؤنثُ .والحال يطلقُ على الزمانِ الحاضرِ وعلى المعاني التي لها وجودٌ في الذهن ...والحالُ يختصُ به الإنسانُ وغيرهُ من الأمورِ المتغيرةِ في نفسهِ وجسمهِ وصفاتهِ ... والهيئةُ النفسانيةُ أولَ حُدوثها قبلَ أن ترسخ تسمَّى **حالاً**، وبعد أن ترسخ تُسمَّى **ملكةً** . وهي الأمر الداعي إلى إيراد الكلام على وجهٍ مخصوصٍ وكيفيةٍ معينةٍ من حيث إنه بمنزلة زمانٍ يقارنه ذلك الوجه المخصوصُ يسمى **حالاً** .ومن حيث إنه بمنزلة مكان حلَّ فيه ذلك الوجهُ يسمى **مقامًا**"[9].

ولمزيد بيانٍ لمصطلحِ "**الحالِ**" يورد التهانوي نصًّا للمحقق سعد الدين التفتازاني الذي " يرى أن الحال والمقام متقاربانِ بالمفهوم متغايرانِ بالاعتبار، فإنَّ الأمر الداعي مقامٌ باعتبار توهمِ كونه مَحلاً لورودِ الكلام فيه على خُصوصيةٍ، وحالٌ باعتبارِ توهم كونهِ زماناً لهُ .وأيضا المقامُ يعتبرُ إضافته في أكثر الأحوال إلى المُقتضَى...فيقالُ مقامُ التأكيدِ والإطلاقِ والحذف والإثبات والحال إلى المُقتضِي بالكسر...فيقال حالُ الإنكار وحالُ خلو الذهن وغير ذلك"[10].

فمن البيِّن إذن أن البلاغيين القدامى" قد اهتمُوا في تعريفهم لمقتضى الحالِ بالسَّامعِ والمُتكلم والتعريفُ يقتضي أن يكون المتكلمُ على علمٍ بأحوال السامع قبل أن يتكلم حتى يأتي بالكلامِ المتصفِ بما يتطابقُ مع حالِ السَّامع، وهذه هي الخصوصيةُ المُرادةُ الزائدة فوقَ المعنى الأصليِّ الذي يُؤديه الكلام"[11] ؛ وهو ما يتوافق إلى حدٍ بعيدٍ مع معطيات الدرس السياقي الحالي الغربي عند فيرث وهاليداي خاصةً فقد شكلتْ عناصرُ سياق الموقفِ (Context of situation)عندهما وفق التصور الذي وضعاه للحدث الكلامي إطارًا منهجيًا يمكن تطبيقه في البحث عن الدلالة بوجهٍ ما، وهو ما يعطي النَّظر العربي البلاغي خصوصًا أسبقية مطلقة في هذا الجانب بالبروز واللمعان كما برزت النظرية السياقية الغربية .

المجلد: (16) | العدد: (02) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 238–260 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

4. سِياقُ الحالِ عند المفسِّرينَ . دِلالتهُ وآثَارهُ :

إنَّ المتأملَ في خطاب المفسِّرين يدركُ أنهم لم يقتصروا على تحديد وسائل فهمِ الخطابِ القرآني فحسب، وإنما عملوا على إبراز الوسائل التي تساعدُ على ترجيحِ معنى دون آخرَ، وتقوية دلالةٍ على حسابِ غيرها من الدلالات المحتملة، إذ لا يكتفى بالدلالات اللغوية المجردة ، بل لابد من مراعاة مجموع القرائن التي تحتفُ بالخطاب ؛ ومن العلامات المساعدة على فهمِ قصدِ المتكلمِ النَّظر في سياق الكلام قريبهِ وبعيدهِ، لُغويِّه ومقاميِّه، وقد وجدنا المفسرين يعرضون لتلك القواعد ويطبقونها في مظانِّ مصنفاتهم.

1.4 سياقُ الحالِ .المفهومُ والأهميةُ :

المقصود **بسياق الحالِ** عند جمهور المفسِّرين "جملةُ العناصرِ غير اللغويةِ المكوِّنة للموقفِ الكلامي من شخصيةِ المتكلم والسامع وعلاقات الزمان والمكان وسائر الظروف المحيطة والتي تسهم في تكوين معنى الكلام وتتركُ أثرها فيه"[12].

"ونظرا للأهمية التي تولى للسياق – **مقالاً أو حالاً**– في فهم دلالة الكلام فقد غدَا قاعدةً أساسيةً في عملية التأويل ، ما دام فهمُ الخطاب يستدعي شرطًا أساسيًّا وهو فهْمُ السِّياق، وقد أبرز المفسِّرون الأوائل على تنوعِ مناهجِهم واتجاهاتِهم في التَّفسير روايةً و دِرايةً أهمية السياق في فهْم وإدراكِ دِلالة النَّص القرآني، وترجيح التأويلات والأقوال في تفسير الآية الواحدة، وما نودُ التذكير به هنا هو أن السياق –عندهم– لا يقومُ بالوظيفة التفسيرية فقط وإنما يتعداها إلى وظيفةٍ أخرى تختصُ بترجيحِ معنى معينٍ على ما سواه، وتقويةِ دِلالةٍ مخصوصةٍ على حساب دلالاتٍ مرجوحةٍ ، ورفعِ الاحتمالاتِ ودفعِ التوهم والإلباسِ بتأكيد احتمالٍ واحدٍ قويٍّ لقوةِ مُرتكزهِ السِّياقي"، وهو الأمرُ الذي يؤكده ابن القيم بقوله :"السِّياقُ يرشدُ إلى تبيينِ المُجملِ وتعيينِ المُحتملِ والقطعِ بعدمِ احتمالِ غير المرادِ ، وتخصيصِ العامِ وتقييدِ المُطلقِ وتنوُّعِ الدِّلالةِ ، وهذا من أعظم القرائنِ الدالة على مُراد المُتكلم فمن أهملهُ غلطَ في نظرهِ وغَالطَ في مُناظرتهِ"[13] .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

5. سياقُ الحالِ وأسبابُ النزولِ . قراءةٌ في تجلياتِ الدِّلالةِ:

1.5 أسبابُ النزولِ .الماهيَّة والدَّورُ :

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم ليهديَ الإنسانية إلى المحجَّة الواضحة ويرشدها إلى الطريق القويم .." وأكثرُ القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة، ولكن الصحابة –رضي الله عنهم– في حياتهم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم حادثٌ خاصٌ يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبسُ عليهم أمرٌ فيسألون رسول الله عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه فيتنزلُ القرآن لذلك الحادثِ أو لهذا السؤالِ الطارئ، ومثل هذا عُرف عند المُفسِّرين بأسبابِ النزولِ" [14].

وقد ذكر الإمام الزرقاني أن المقصود بسبب النزول "هو ما نزلتْ الآية أو الآيات مُتحدثة عنه أو مُبينة لحكمه "**أيام وقوعه**"، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم– أو سؤالٌ وجِّه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال ... والمراد بقولنا "**أيام وقوعه**" الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثا عن ذلك السبب سواء أوقعَ هذا النزول عقبَ سببهِ مباشرةً، أم تأخر عنهً مدة لحكمةٍ من الحِكم"[15].

وعليه يتضحُ جليًّا "أن أسباب النزول فرعٌ من فروعِ علم التفسير وهو علم يبحث فيه عن أسباب نزول آية أو سورة ووقتها ومكانها وغير ذلك"[16] أيْ هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحُكمه أيام وقوعه، ومن ثمَّ فإنه لا بد في اعتبار سبب النزول من نزول الآية أيام وقوع الحادثة التي نزلت بسببها أو بعدها بقليل، و هذا قيد لابد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سببٍ بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة كبعض قصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام مما لا يعد من هذا الباب بل يرتبط بالسبب العام لنزول القرآن وهو هداية الناس أجمعين.

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

6. عناصرُ سياق الحَال . الوظائفُ والمقاصِدُ :

"تجتمعُ سُبلُ الدارسين المُحدثين وتتفقُ رُؤاهم في أنَّ العرضَ الدلالي لتجلياتِ سياق الحال في الدرس القرآني غالبا ما تشكل أسباب النزول مدخله و منطلقه، وبيِّنُ أهميتها جليةٌ معالمهُ في ما اختصَ به هذا الذكر الحكيم من اجتماعٍ لمتعددٍ ومتباينٍ من عناصر الحال السياقية :مُخاطبِين وبيئةً من المكانِ والزمانِ، وضربًا من القصدِ والمناسبةِ ...وهذا في حَضرةٍ من السَّماع والمشاهدة للصَّحابة الكرامِ ممن كان عنهم –غالبا– من بَعدُ روايةُ أسبابِ نزولِ الآياتِ"[17] مما شكل مَعينا لا ينضب لدى المفسرين الأوائل إفادةً وبيانا وترجيحًا دلاليا لبعضِ مُحتمل نصوص الذكر الحكيم ومتشابهه.

ومن هنا تبرز أهمية مكونات الحال السياقية – " وما يتصلُ بها من عناصرِ الحال والزمان والمكان والمُتكلم والمخاطَب– في فهم النص القرآني وبيان دلالته ومقاصده إذ يقدمُ المنهج السياقي في التفسير ببعديْه المقالي والحالي بين يدي فهم النص الشرعي نسقا من العناصر التي تقوي طريق فهمه وتفسيره والاستنباط منه؛ لأنّ العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب التي تكمن وراء نزولها أو ورودها يُورث العلم بالمُسببات وينفي الاحتمالات و الظنون غير المرادة ويقطع الطريق على المقاصد المُغرضة التي لم يردها الشارع الحكيم ولم يرُمْها"[18].

1.6 العلمُ بحالِ المُخاطِب / المتكلمُ وقصدُه :

المتكلم بالقرآن هو الله –عز وجل– ولذلك يجب على المخاطَبِ فهم كلامه سبحانه في ضوء ما يليق به من صفات الكمال والجلال ووفق اعتبارات سياقية تحكمها أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها .

"ومن ثمَّ كانت المعرفة بالذات العلية عن طريق المعرفة بصفاتها التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وعن طريق آثارها التي يدركها العقل في تأمله في هذا الكون ونظامه البديع من جهة أخرى أمرا ضروريا لمعرفة المراد من خطابه تعالى"[19] .

المجلد: (16) | العدد: (02) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 238–260 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وقد راعى هذه الحقيقة الكونية واللسانية أئمة المفسرين والأصوليين فأكدوا على ضرورة اعتبارها ومراعاتها المراعاة الأوفى، ومن ذلك ما ذكره الإمام الشاطبي في "**الموافقات**" من أن "معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حاليْنِ و بحسب مخاطبَيْن وبحسب غير ذلك"[20] .

ولذلك فالعلم بمراد الله تعالى يقتضي من المفسر مراعاة قصد المتكلم –وهو متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه – على اعتبار أن "الألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق عمل بمقتضاه، سواء كانت بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية"[21] .

وبالجملة فإن لصاحب النص أو المتكلم ومقاصده مكانة مرموقة مشتركة لدى المفسرين على اختلاف مذاهبهم، فكل منهم حريص أشد الحرص على المعنى الذي يعنيه الله تعالى ويرتضيه، ولذلك فقد غدت المعرفة بمقاصد التنزيل للمفسر أمرا ضروريا ومبتغى دلاليا أسمى من خلال إعمال النظر العميق في حقيق المعاني والدلالات التي يتقصدها الشارع الحكيم إذ إن "المعنى المطلوب في تفسير النص القرآني والديني عامة يجب ألا يكون إلا المعنى الذي أراده الله صاحب الكلام"[22] .

وقد ترتب عن هذا الأصل في التفسير –**وجوب مراعاة مقاصد المتكلم**– رفض المفسرين لبعض الأقوال والتفسيرات بحجة معارضتها لمقصد المتكلم سبحانه منها ما قيل في تفسير قوله تعالى :"**ولقدْ همَّتْ بهِ وهمَّ بها لولآ أن رءَا بُرهانَ ربِّهِ كذلكَ لنصرفَ عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ إنَّهُ من عِبادنَا المُخلَصِينَ" (سورة يوسف الآية 24)**؛ من جلوس يوسف عليه السلام من المرأة مجلس المجامع فقيل :" كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟" وهو تفسير استنكره الإمام الزمخشري أشد النكير وأخزى من أخذ به فقال :" المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب ميلا يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع"[23] .

ثم إن المقصد الحقيق بالتأمل والنظر من قصة يوسف –عليه السلام– إنما هو أن تكون مثلا وعبرة " ليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العِثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شُعب الزانية همًّا للوقوع عليها"[24].

2.6 العلمُ بحالِ المُخاطَبِ / المُتلقي :

اهتم المفسرون على تنوع مذاهبهم بالمخاطَبِ أو المتلقي كونه العنصر الحالي الثاني من عناصر الخطاب، "وهو تبعٌ وتمامٌ لمتقدمه "المتكلم" وباجتماعه وإياهُ في عموم الخطاب اللساني انعقادُ سَمتٍ من الاجتماعية اللغوية ، وتحققٌ للوظيفةِ التداوليةِ التواصليةِ ، ولهذا كانت مراعاة متعدد أحوال "المُخاطَب" ثابتُها ومتغيرُها أمرًا واجبًا ومعتبرًا في كلِّ تحليلٍ لسانيٍّ دلاليٍّ تداوليٍّ يتهادى له كغاية إفادةَ وإصابةَ صحيح المعنى الذي يتقصدهُ الشارِع الحكيم"[25].

ومعرفة المُخاطَبين بالقرآن في السياق التفسيري لا تقلُّ أهمية وضرورةً عن معرفةِ المتكلم به "الذات العلية" في مجال فهم الخطاب وتفسيره، إذ لا يتأتى للمتكلم –بالنظر إلى مقولات علم اللغة النصي وأصول نظرية التلقي– أن يُغفلَ المُخاطَب وهو يبدعُ الخطاب أو يتحدثُ به إليه، بل لعله لا يُتصورُ خطابٌ أصلا من دون متلقٍ لهُ .

وما يميزُ الخطاب القرآني –موضوعَ علم التفسير– "اتساعُ دائرة المُخاطَبين وتعددُ أصنافهم، فهو يخاطبُ الفرد حينًا والجماعة حينًا، والأمة بكاملها ويخاطبُ المؤمن والمنافق والكافر والصالح والعاصي... ولكلٍ منهم كلامٌ مخصوصٌ ليس لغيره من المُخاطَبين"[26] .

ولهذا فقد تأكد لدى مفسرينا الأوائل أن دلالةَ النصِ تختلفُ باختلافِ من يوجهُ إليهم الخطاب، فذاتُ الخطابِ تختلف دلالته بين أن يكون موجها للمؤمن وبين أن يكون موجهًا لغير المؤمنِ وهو الأصل الذي أشار إليه الإمام الشاطبي آنفا من أن "**الكلام الواحدَ يختلفُ فهمهُ بحسبِ حالَيْن وبحسبِ مخاطبيْن** "[27].

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وأولُّ المخاطبِينَ بالقرآن هو الرسول محمد – عليه الصلاة والسلام– "فهو المتلقي الأول لهذا النص الذي هو وحي منزل عليه أساسا فكانت المعرفة بشخصية الرسول الكريم حينئذ ضرورةً وواجبًا معتبرًا من قبل المفسر باعتبار النبي– عليه الصلاة والسلام– مخاطَبا ومخاطِبا في آنٍ معا، ولا يتأتى العلم بشخصيته إلا عن طريق ما جاء به القرآن نفسه الذي تحدث عن صفاته وأخلاقه وما جاء في كتب السيرة النبوية من الحوادث والوقائع اللازمة لفهم النص القرآني وتفسير غوامض آياته و ملتبس معانيه"[28].

ويستتبعُ المعرفة بشخصه وأحواله – عليه الصلاة والسلام– ولأحوال التنزيل عامة المعرفةُ بأحوال صحبه الكرام ممن شاهدوا أسباب النزول عياناً فإنهم أدرى بمعاني القرآن "**لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها**، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علماؤهم و كبراؤهم"[29].

فكون الصحابة من المُخاطَبين بالقرآن مباشرة فلأنهم أهل اللسان العربي وأدرى الناس بلغةِ الكتابِ وأساليبه وضروبِ معانيه ولأنهم شاهدوا أحوال نزول الوحي وقرائنهُ وأسبابهُ عياناً كما أنهم أعلم الناس بعادات العرب وأحوالها وأخبارها وتلك قرائن سياقية مهمة لا غنى للمفسر عنها إذ يرتبط فهم كثير من الآي بهذه المعرفة .

ويليهم في تراتبية هذا الاستدلال التابعون من تلاميذهم ممن عنهم أخذوا وبهم تأثروا، وقد رجع كثير من أئمة المفسرين في ذلك إلى أقوال التابعين.

والمخاطبون أخيرا بالقرآن هم سائر العالمين من العرب وغيرهم باعتبارهم عموم متلقيه، "فكل ما يطرحه النص القرآني من قضايا فإنها ترتبط بالمُخاطَبين في عقائدِهم وسلوكِهم وأشكال حياتهم المختلفة "[30]، ذلك أن الذكر الحكيم منزلٌ بلسانهم وبقواعده تُستجلَى غوامضُ معانيه وبها يُهتدى إلى لطائف أسراره ودقائق إعجازه .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

3.6 مراعاةُ زمان الخِطاب ومكانهُ :

يمثلُ زمان الخطاب ومكانه العنصر الحالي الثالث من عناصر الحال السياقية ومن تمثلات هذا المكون السياقي التداولي في الخطاب القرآني ما أطلق عليه أئمة المفسرين "**بعلم المكي والمدني**" فقد عني المفسرون بالتتبع والتنقيب عن زمان النزول ومكانه حتى فصلوا القول فيهما تفصيلا فذكروا ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية وغيرها من الأماكن، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر وما نزل في الليل وما نزل في النهار وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء ونحو ذلك "[31].

ولذلك فقد أوجب المفسرون على المتعرض لتفسير الآي المعرفة والدراية بزمان النزول ومكانه لما لهما من عظيم الأثر في إدراك معاني التنزيل وتحصيل مراد الشارع الحكيم والظفر بمقاصد الخطاب القرآني .

وفي هذا السياق نقل السيوطي في "**الإتقان**" عن الإمام أبو القاسم النيسابوري قوله :"من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ...وما نزل بالجَحفة وما نزل ببيت المقدسِ وما نزل بالطائفِ وما نزل بالحديبية وما نزل ليلا وما نزل نهارًا وما نزل مشيَّعًا وما نزل مفردًا وما نزل مُجملا وما نزلَ مفسَّرًا ...فهذه خمسة وعشرون وجهًا من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى" [32].

وقد ذكر الإمام الزرقاني في "**المناهل**" أن للعلماء في المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات أشهرها وأرجحها الاصطلاح الثالث وهو "أن المكي ما نزل قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة، وهو تقسيم –كما نرى– فيه مراعاة لزمن النزول وهو ضابط حاصر مطرد لا يختلف باختلاف سابقيه".[33] ومعلوم أن الطريق إلى معرفة زمان النزول ومكانه هو النقل والسماع والراوية عن المتلقين الأوائل من الصحابة الكرام الذين "عاينوا الوحي والتنزيل وشهدوا مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً "[34] .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وحسبنا في هذا المقام التأكيدُ على أن كلام المفسرين حول أهمية الاعتبار بمكونات الحال السياقية من مراعاةٍ لحال المتكلم والمخاطَب ومن اعتبارٍ لمكان الخطاب وزمانه ومن الأحداث والوقائع والأحوال المصاحبة للتنزيل لهي آلةٌ من آلاتهم الدلالية والتداولية المعينة في فهم حقيق معاني الذكر الحكيم ووسيلة من **وسائل تصيد المعاني والمقاصد من السياق القرآني** بيانا لأسمى غاياته الشريفة، وما تقصيهم الدقيق لأسباب نزول الآي والتفريق بين مكيه ومدنيه وحضريه وسفريه وليله ونهاريه إلا تمثلٌ عمليٌّ منهم لتلك المعطيات الدلالية الحالية .

7. آثارُ سياق الحَالِ في بيانِ مقاصدِ الخِطابِ القُرآنيِّ ."تفسيرُ التَّحريرِ والتنويرِ" أنموذجًا :

يُولي الإمامُ محمدُ الطاهرُ بن عاشور في تفسيرهِ "التحريرُ والتنويرُ" أسبابَ النُّزول عِنايةً فائقةً حيثَ نَهجَ في إيرادها منهجًا قويمًا يعتمدُ على التَّمحيصِ والمُناقشةِ والترجيحِ، فنجده يَجْمعُ أسبابَ النزولِ في الآيةِ الواحدةِ ويتعقبُها، ويرجِّحُ أقربَها للصَّوابِ، ويعللُ ردَّهُ للرِّواياتِ الأُخرى"[35]، ومن الأمثلةِ التطبيقيةِ لعنايتهِ بالحالِ السِّياقيةِ في الترجيحِ بين دِلالاتِ الخطاب القرآنيِّ ما ذكرهُ الإمام عند تفسيرِ قولهِ تعالى: **" ولا تَسبُّوا الذينَ يدعُونَ مِن دُونِ اللهِ فيسُبُّوا اللهَ عَدوًا بغيرِ عِلمٍ كذلكَ زينَّا لكلِّ أمةٍّ عَملهُم ثمَّ إلى ربهمْ مَرجعُهُم فيُنبئهُمْ بما كانُوا يَعملُونَ" (سورة الأنعام الآية 108)** .

إذ نراه يقول:"... والمُخاطَبُ بهذا النهيِّ المُسلمون لا الرَّسولُ –صلى الله عليه وسلم– لأنَّ الرسولَ لم يكنْ فحَّاشًا ولا سبَّابًا لأنَّ خلقه العظيم حائلٌ بينه وبين ذلك، ولأنه يدعوهم بما ينزلُ عليه من القرآن فإذا شاءَ الله تركهُ من وحيهِ الذي ينزلهُ، وإنما كانَ المُسلمونَ لغيرتِهم على الإسلام ربَّما تجاوزُوا الحدَ ففرطتْ منهم فرطاتٌ سبُّوا فيها أصنامَ المشركينَ.

روى الطبريُّ عن قتادة في سَبب نزولِ الآية إذ قالَ : " كان المسلمون يسُبُّون أوثانَ الكفارِ فيردُون ذلكَ عليهم فنهاهم اللهُ أن يَستسبُّوا لربهم" فإنهم قومٌ جَهلةٌ لا علمَ لهم بالله وهذا أصحُ ما رُويَ في سَببِ نزولِ هذه الآية وأوفقهُ بنظمِ الآية "[36] .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

ومنَ الأمثلةِ أيضًا ما أشارَ إليهِ الإمامُ ابن عاشور في تفسيرهِ لقوله تعالى :"**وإذا لَقُوا الذينَ آمنُوا قالُوا آمنَّا وإذا خَلَوا إلى شَيَاطِينِهِم قالُوا إنَّا معكُم إنَّما نحنُ مُسْتهزؤُنَ" (البقرة الآية 14)**.

إذْ يعتمدُ في تفسيرِ الآيةِ الكريمةِ على سِياقِ الآية ونظمِها أولا ثمَّ سَبب نزولِها ثانيًا فيعوّلُ على علاقة سِياق الحالِ بما يقتضيهِ خلافُ ظاهرِ اللفظِ القرآنيِّ، "وهو يقصدُ بمُصطلحِ "**خلافُ مقتضى الظاهرِ**" فهمَ المعنى على خِلافِ ما يبدو من التركيبِ اللغويِّ، والقرينةُ في ذلك هي المقامُ أو الحالُ"[37]، فنراهُ يقول :"... وخطابُهم –أي المنافقينَ– مُوهِمٌ أيْ للمؤمنينَ– بما يقتضي أنهم حققُوا لهم بقاءهم على دينهِم بتأكيدِ الخبرِ بما دلَّ عليه حرفُ التأكيدِ في قوله "**إنَّا معكُم**" مع أن مقتضَى الظاهرِ أن يكُون كلامهم بعكسِ ذلك؛ لأنَّ المؤمنين يشكُّون في إيمان المنافقين، وقومُهم لا يشكُّون في بقائهِم على دينِهم، فجاءتْ حكايةُ كلامِهم الموافِقةُ لمدلولاتهِ على **خلافِ مقتضى الظاهرِ لمُراعاةِ ما هو أجدرُ بعنايةِ البليغِ من مقتضى الظاهرِ**.

فخُلو خطابِهم مع المؤمنينَ عما يفيدُ تأكيدَ الخبرِ لأنهم لا يريدُون أن يعرضُوا أنفسَهم في معرضِ من يتطرقُ ساحته الشكُّ في صدقهِ لأنهم إذا فعلُوا ذلك فقد أيقظوهم إلى الشك وذلك من إتقان نفاقهم على أنه قد يكون المؤمنون أخلياءَ الذهنِ من الشك في المنافقين لعدم تعينهم عندهم فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقتضى الظاهر.

وأمَّا قولهم لقومهم: "**إنَّا معكُم**" بالتأكيد فذلك لأنه لمَّا بدَا مِن إبداعهِم في النفاق عند لقاءِ المُسلمين ما يُوجبُ شك كبرائهم في البقاءِ على الكفرِ وتطرقُ به التهمة أبواب قلوبهم احتاجُوا إلى تأكيدِ ما يدلُّ على أنهم باقون على دينهِم؛ وكذلك قولهم : "**إنَّما نحنُ مُستهزؤن**"فقد أبدَوا به وجهَ ما أظهرُوه للمؤمنينَ وجاءُوا فيه بصيغةِ قصرِ القلبِ لردِّ اعتقادِ شياطينِهم فيهم إنَّ ما أظهرُوه للمؤمنين حقيقةٌ وإيمانٌ صادقٌ. وقد وجه صاحب الكشافِ العدولَ عن التأكيد في قولهم: "آمنَّا" والتأكيد في قولهم: "إنَّا معكم" بأن مخاطبتهم للمؤمنين انتفى عنها ما يقتضي تأكيد الخبر لأنَّ المُخبرين لم يتعلق غرضهم بأكثرَ من ادعاءِ حدوثِ إيمانهم لأن نفوسهُم لا تساعدهم على أن يتلفظوا بأقوى من ذلك ولأنهم علمُوا أن ذلك لا يروجُ على المسلمين أي فاقتصرُوا على اللازم من الكلام فإن عدم التأكيد في الكلام قد يكون لعدم اعتناء المتكلم بتحقيقه، ولعلمه أن تأكيده عبثٌ لعدم رواجه عند السامع، وهذه نكتةٌ غريبةٌ مرجعها قطع

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

النظرِ عن إنكارِ السامع والإعراض عن الاهتمام بالخبر، وأمَّا مخاطبتهم شياطينهم فإنَّما أتوا بالخبرِ فيها مؤكدًا لإفادةِ اهتمامِهم بذلك الخبر وصدقِ رغبتهم في النُّطق بهِ ولعلمهم أن ذلك رائجٌ عند المُخاطبِين فإنَّ التأكيد قد يكونُ لاعتناءِ المتكلمِ بالخبرِ ورواجهِ عند السَّامعِ أي فهو تأكيدٌ للاهتمامِ لا لرد الإنكار"[38].

وفي سياق تفسيرِه للآية الكريمة يذكرُ صاحبُ الكشافِ أن خطابَ المنافقين للمؤمنين ليسَ جديرًا بأقوى الكلاميْنِ وأوكدِهما لأنهم في ادِّعاء حُدوثِ الإيمانِ منهم، لا في ادِّعاء أنهم أوحديُّون في الإيمان غيرُ مشقوقٍ فيه غبارهُم، وذلك إمَّا لأنَّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعثٌ ومحركٌ... وإمَّا لأنه لا يروجُ عنهم لو قالوهُ على لفظ التوكيدِ والمبالغة... وأمَّا مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبرُوا عن أنفسهم من الثباتِ على اليهودية، والقرار على اعتقاد الكفر، والبعدِ من أن يزلُّوا عنه على صدقِ رغبةٍ ، ووفورِ نشاطٍ وارتياحٍ للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائجٌ عنهم متقبلٌ منهم، فكانَ مظنة للتحقيق ومثنةً للتوكيدِ"[39].

وبالجملة فإنَّ عنايةَ الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للآيات الكريمة بمراعاة أحوال المُخاطبين بالقرآن واهتمامهُ بمقاصدِ المتكلمِ والسِّياق الذي وردتْ فيه وعلاقتها بما قبلها وما بعدها وأسبابِ نزولها فيه دليلٌ واضحٌ وجليٌّ على أهمية الحال السياقية عنده في تفسير وبيان الكثير مما يلتبس من معاني الذكر الحكيم، فالقول الذي يدلُ عليه سياق الحال عنده أولى من غيرهِ ما لم توجدْ حجةٌ يجب إعمالها، إذ لكل آية مقامُها الذي يجري عليه استعمال كلماتها فلا تعارض حينئذ بين الآياتِ.

8. خاتمة:

وفي خاتمة هذه الدراسة يمكننا تلخيصُ أهم النتائجِ التي تبيناها وهي في الأصل إجابة عن أهم الإشكالات المطروحة كالآتي:

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

1. للحَالِ السياقيةِ حُضُورٌ معتبرٌ في تجلِّي حقيق المعاني القرآنيةِ عند **الإمام محمد الطاهر بن عاشور** في تفسيره "**التحرير والتنوير**" إذْ مِن قواعدِ الترجيحِ عندهُ بين دِلالاتِ ومعاني الخطابِ القرآنيِّ ما يتعلقُ بمُناسبةِ السِّياقِ وحَملِ الآياتِ على ما يجعلُها داخلة في معانِي ما قبلَها وما بعدَها وكذلك مُراعاةُ حَالِ المُخاطَبينَ ومقامِ الآياتِ الذي يَجرِي عليهِ استعْمالُ كلماتِها، وكذا مُراعاة نظمِ الكلامِ وترتيبهِ والمناسبةِ بين فواتحِ الكلامِ وخواتمهِ .

2. مُصطلحَا السِّياق والحالِ أو المقامِ –إفرادًا لا تركيبًا– مُصطلحانِ من مصطلحاتِ المفسِّرين وإن جرى استعمالهما من قِبلِهم بدلالاتٍ مُتعددة حينًا ومتداخلةٍ حينًا آخر إذ غابَ عنها فيصلُ الاصطلاحِ الدقيق إفرادًا وتركيبًا.

3. غايةُ علمِ التَّفسيرِ بيانُ معاني القرآنِ الكريمِ، و القرينة السِّياقية الحاليةُ / المقاميةُ آلةٌ هامةٌ من آلاتِ التبيانِ الدلاليِّ المتعددةِ إفادةً لتحصيلِ تلكَ الغايةِ الشريفةِ .

4. دِلالة السِّياق عند المفسرينَ أداةٌ ضروريةٌ من أدواتِ فهمِ النصِّ القرآنيِّ ووجهٌ من الوجُوهِ الكاشفةِ عن لطائفِ إعجازهِ وبلاغةِ بيانهِ بقدرِ الطاقةِ البشريةِ.

5. عنايةُ المفسِّرين الأوائل على اختلافِ مناهجهم بين مأثورٍ ورأيٍ بعناصرِ الحالِ السِّياقية ومَا يُصاحبها من مُلابساتٍ كلاميةٍ وظروفٍ مقاميةٍ وأحداثٍ خارجيةٍ دليلٌ وبرهانٌ على أهميتها البالغةِ في بيانِ حقيق المعاني التي يتقصدُها الشَّارعُ الحكيمُ، وأهميتُها عندهم تتجلى في تقديرِ المحذُوفاتِ وترجيحِ المُحتملاتِ وبيانِ مراتبِ الألفاظِ تقديمًا وتأخيرًا ليستْ تخفَى.

6. إنَّ النظرَ في جملة العواملِ المُصاحبةِ لأحوالِ التنزيلِ من معرفةِ أسبابِ النزولِ والإحاطةِ بها أمرٌ جعلهُ المفسِّرون واجبَ التحصيلِ والتحقيق فيه مِن المفسِّر قبلَ عَرضهِ للآيات بالتفسيرِ والتبيانِ.

7. تساعدُ المعرفةُ بعناصرِ الحَالِ السياقية مِن متكلمٍ ومُخاطبٍ وبيئةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ في معرفةِ حقيق مقاصدِ الخطابِ القرآنيِّ، وما حرصُ المفسِّرين على التقصِّي والتتبعِ الدقيق لأسبابِ نُزولِ الآياتِ والسُّور إلا تمثلٌ عمليٌّ منهم لهذا المُعطى الدلاليِّ التداوليِّ –أعني سياق الحال– .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

9. الهوامش:

[1] أحمد بن الحسين بن زكريا (ابن فارس)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هاورن، 1979، د/ط، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ج 3، ص 118 (مادة سَوَقَ).

[2] جمال الدين أبو الفضل (ابن منظور)، **معجم لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، د/ت، د/ط، القاهرة، دار المعارف، ص 2153– 2154 (مادة سَوَقَ).

[3] ابن منظور، المرجع نفسه، ص 1154 (مادة حَوَلَ).

[4] ابن فارس، المرجع نفسه، ج 2، ص 121 (مادة حَوَلَ).

[5] فريد عوض حيدر، **فصول في علم الدلالة**،2011، ط 3، القاهرة، مكتبة الآداب، ص126.

[6] فريد عوض حيدر، المرجع نفسه، ص 127.

[7] فريد عوض حيدر، المرجع نفسه، ص 127.

[8] محمود السعران، **علم اللغة. مقدمة للقارئ العربي**، 1997، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 311.

[9] أبو البقاء الكفوي، **الكليات**، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، 1998، ط2،بيروت، لبنان،مؤسسة الرسالة ناشرون، ص 374.

[10] محمد علي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق : علي دحروج، 1997، ط 1، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ج 1، ص 617 .

[11] تمّام حسّان، **اللغة العربية. معناها ومبناها**، 1994، د / ط، الدار البيضاء، دار الثقافة، ص 337.

[12] محمد المهدي رفاعي، 2004، **السياق في كتب التفسير .الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجا** ، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية ، جامعة حلب ، سوريا ، ص 17.

[13] ابن القيم الجوزية، **بدائع الفوائد** ، تحقيق : أحمد عبد السلام ، د/ت ، د/ط ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ج 3 ، ص 222.

[14] مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، د/ت، ط 7، القاهرة، مصر، مكتبة وهبة للنشر، ص 71.

[15] محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، 2021 ، د/ط، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية، ج 2، ص 105–106.

[16] خالد عبد الرحمان العك، **أصول التفسير وقواعده**، 1986، ط 2، بيروت، دار النفائس للنشر، ص 99.

[17] خميسي زويدي، ديسمبر 2021، **من أصول الدلالة السياقية الحالية عند المفسرين**، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة واد سوف، مج 5، ع 02، ص 516.

[18] عبد الرحمان بودرع، **أثر السياق في فهم النص القرآني**، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ع 25، ص 72– 73.

[19] خلود العموش، **الخطاب القرآني .دراسة في العلاقة بين النص والسياق**، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2008، ص 121.

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

[20] أبو اسحاق بن موسى الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997، ج 4، ص 146.

[21] ابن القيم الجوزية، **إعلام الموقعين**، ج1، ص 218.

[22] محمد مهدي رفاعي، السياق في كتب التفسير، ص196.

[23] جار الله أبي القاسم محمود الزمخشري، **تفسير الكشاف**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرون، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1998، ج 3، ص 270.

[24] الزمخشري، تفسير الكشاف ،ج3، ص 270.

[25] خميسي زويدي، 2021 / 2022، **سياق الحال في النحو العربي.أصالة النظرية ودلالاتها النحوية** ، أطروحة دكتوراه علوم، تخصص اللغويات، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة 1، الجزائر، ص210.

[26] محمد مهدي رفاعي، السياق في كتب التفسير، ص201

[27] الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج4، ص 146.

[28] محمد مهدي رفاعي، السياق في كتب التفسير، ص202.

[29] تقي الدين أحمد بن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د/ط، 2004، المجلد 13، ص 463.

[30] محمد مهدي رفاعي، السياق في كتب التفسير، ص214.

[31] محمد مهدي رفاعي، المرجع نفسه ، ص214.

[32]جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن** ، ج1 ، ص 247.

[33] محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن،ج1 ، ص 183.

[34] محمد مهدي رفاعي ، السياق في كتب التفسير، ص249.

[35] عبير بنت عبد الله النعيم، **قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير و التنوير. دراسة تأصيلية تطبيقية**، دار التدمرية للنشر، المملكة العربية السعودية ، ط1 ،2015، ص 141.

[36] محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 1984، د/ط، تونس، الدار التونسية للنشر، ج1، ص428.

[37] حسين محمد زعطوط، 2011 ، **المفاهيم النظرية لسياق الحال ومكوناته عند محمد الطاهر بن عاشور** ، مجلة دراسات العلوم الاجتماعية والإنسانية ، جامعة ورقلة / المجلد 38 ، العدد 1 ، ص 170.

[38] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص 291.

[39] الزمخشري، تفسير الكشاف، ج1 ، ص 184 .

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

10. قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.**

أولا: الكتب باللغة العربية:

1. ابن تيمية تقي الدين أحمد، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د.ط، 2004، المجلد 13.

2. ابن عاشور محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، 1984، د.ط، تونس، الدار التونسية للنشر، ج1.

3. ابن فارس أحمد بن الحسين بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هاورن، 1979، د/ط ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر،ج 3.

4. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل، **معجم لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، د/ت ، د/ط ،القاهرة، دار المعارف.

5. الآمدي علي بن محمد، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1985، ج1 .

6. الأندلسي أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1993، ج 1.

7. التهانوي محمد علي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1997، ج1 .

8. الجوزية ابن القيم، **بدائع الفوائد**، دار الكتب العلمية، لبنان، د/ت، ج3.

9. الجوزية ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، دار عطاءات العلم وابن حزم، المملكة العربية السعودية، 2019، ج1.

10. الخطيب أحمد، **مفاتيح التفسير**، دار التدمرية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2010، ج1.

11. الذهبي محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، دار الحديث للنشر، القاهرة، 2012، ج1.

12.الزمخشري جار الله، **تفسير الكشاف**، تحقيق : عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرون، ط1، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، 1998، ج3.

13.الزرقاني محمد عبدالعظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، تحقيق : محمد علي قطب ويوسف الشيخ محمد، ط3، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 2021، ج2.

14.الزركشي بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج1 .

15.السعران محمود، **علم اللغة . مقدمة للقارئ العربي**، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.

16.السيوطي جلال الدين، **لباب النقول في أسباب النزول**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، 2002.

17.الشاطبي أبو اسحاق، **الموافقات في أصول الشريعة**، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، 1997، ج4.

18.العك خالد عبد الرحمان، **أصول التفسير وقواعده**، دار النفائس، بيروت، لبنان 1986.

19.العموش خلود، **الخطاب القرآني.دراسة في العلاقة بين النص والسياق**،ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2008 .

20.القطان مناع، **مباحث في علوم القرآن**، ط 7، مكتبة وهبة للنشر، القاهرة، مصر.

21.الكفوي أبو البقاء، **الكليات**، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، ط2 ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 1998.

22.النعيم عبير بنت عبد الله، **قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير.دراسة تأصيلية تطبيقية**، ط1، دار التدمرية للنشر، المملكة العربية السعودية،2015.

23.حسّان تمّام، **اللغة العربية .معناها ومبناها**، د.ط، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994.

24.عوض حيدر فريد، **فصول في علم الدلالة**، ط 3، مكتبة الآداب، القاهرة،2011.

المجلد: (16)	العدد: (02)	السنة: 2024	صفحات المقال: 238–260	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

ثانيا: المجلات والرسائل الجامعية:

1. بودرع عبد الرحمان، **أثر السياق في فهم النص القرآني**، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ع 25.

2. زويدي خميسي، ديسمبر 2021، **من أصول الدلالة السياقية الحالية عند المفسرين**، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة واد سوف، مج 5، ع 02.

3. زعطوط حسين محمد، 2011، **المفاهيم النظرية لسياق الحال ومكوناته عند محمد الطاهر بن عاشور**، مجلة دراسات العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة ورقلة، مج 38، ع1.

4. رفاعي محمد المهدي، 2004، **السياق في كتب التفسير.الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجا**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة حلب، سوريا.

5. زويدي خميسي، 2021–2022، **سياق الحال في النحو العربي. أصالة النظرية ودلالاتها النحوية**، أطروحة دكتوراه علوم، تخصص اللغويات، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة 1، الجزائر.